# الفصلُ الثّاني

## وسائلُ السّلطان عبد الحميد لتحقيقِ الجامعة الإسلاميّة

استخدم السّلطان عبد الحميد لتحقيق الجامعة الإسلامية، كلّ الإمكانات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدّعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي، من العلماء والمبرَّزين في مجالات السياسة، والدّعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاءِ العالم الإسلامي المختلفة للالتقاء بالشعوب الإسلامية، وفهم ما عندهم، وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السّلطان الخليفة، ونشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدّراسات الإسلامية في الداخل والخارج، وطبع الكتب الإسلامية الأساسيّة، ومحاولة اتخاذ اللّغة العربية- لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية- لغةً للدولة أو ما يسمّى بالتعبير المعاصر «تعريب» الدّولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناءِ الجديد منه، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاءِ الدولةً العثمانية، واستمالة زعماءِ القبائل العربية، وإنشاءِ مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخِ الطرق الصوفية والاستفادة من الصحافة الإسلامية في

الدّعاية للجامعة الإسلامية، واتّخاذ بعض الصحف وسيلةً للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري.

ويمكنُ تفصيل ذلك في الآتي:

**أ – الدّعاة:**

وكانوا كثيرين، نقتصر هنا على إيراد الشخصيات الأكثر بروزًا على أساس تقديم نماذجَ قيادية، على أساس تقسيم جغرافي، فنقول:

**١ – مِن أفغانستان: السيد جمال الدين الأفغاني:**

تعتبر شخصيةُ السيد جمال الدين الأفغاني شخصيةً غريبة الأطوار، فهو قويّ الشخصية، لا يخشى في الحق لومةَ لائم، الحقّ كما يراه. شخصية قيادية، يدعو إلى الوحدة الإسلامية، وترابط المسلمين، ووقوفهم وقفةَ رجلٍ واحد، يستخدم كلّ ما يستطيع استخدامه– من أشخاص ومؤسساتٍ وأفكار– لتحقيق أهدافه. في الوحدة الإسلامية، يمكن أن يوصف بالثورية، أو بمعنى التعجّل في تحقيق أهدافه، أصاب شهرة واسعة في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، شهرة لم يصبها أحدٌ في مثل وضعه، يستبعد وسائل الإصلاحات الجزئية، كإصلاح الإدارة فقط، أو إصلاح التعليم فقط؛ فوسائل الإصلاح الجزئية «لم تعمل على

تحسين أحوال هذه الدول- الإسلامية- ولم تسهم في حلّ مشاكلها، كما لم تمكّنها من الوقوف في وجه أعدائها».

وعند السيد جمال الدين الأفغاني، أنّ الوسيلة في نهضة العالم الإسلامي إنما تنحصرُ في «إنهاض دولة إسلامية من حالة ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها وإيصالها إلى مصافّ الدول القوية».

ولم يكن غير الدولة العثمانية، دولة إسلامية بأوصاف جمال الدين[1].

***

ويرى الأفغاني، ضرورة أنْ تأخذ الدولة العثمانية سياسة اللامركزية، وتكون ولاياتها عبارة عن كيانات مستقلة، استقلالًا ذاتيًّا، لا ترتبط باستانبول إلّا بالمسائل الهامّة فقط، مكوّنة بذلك دولة اتحادية. ثمّ تنضمّ إليها بعد ذلك كافة الممالك الإسلامية الأخرى، كإيران وأفغانستان والهند.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، جمال الدين ص ١٧٧ و ١٧٨ ومحمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص٧٣؛ وأحمد أمين، زعماء الإصلاح ص ٨٩؛ وفرنو «يقظة العالم الإسلامي» ترجمة بهيج شعبان ص ١٠٧؛ ومحمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٣؛ والرافعي، جمال الدين ص ٤٨ و المخزومي ص ٢٤؛ ومرزا لطف الله خان ص ٧١ والمخزومي أيضًا ص١٨، وأحمد شفيق مذكراتي في نصف قرن جـ١ ص١٠٩؛ على التوالي نقلًا عن الشوابكة ١٣٣ وما بعدها.

ويرى الأفغاني أيضًا، أنه يمكن أن يكتفي المسلمون باتحاد الاتجاه والهدف والشعور، دون أيّ تفكير في وحدة سياسية، تنتظمُ كافة دولهم وحكوماتهم[١].

ويبدو أنّ تراجع الأفغاني عن مشروعه الكبير في الدولة الاتحادية الإسلامية، والاكتفاء بتوحيدِ وجهة العالم الإسلامي، قد حدث بعد أن قابل الأفغاني السّلطان عبد الحميد في استانبول، وعرض عليه مشروعه، فاكتشف السّلطان أنّ الأفغاني كان نظريًّا في التفكير، ولم يتعمّق في فهم الوضع السياسي والفكري في بلاد المسلمين وقتها.

***

لم يتّخذ الأفغاني في مجال دعوته للوحدة الإسلامية برنامجًا متكاملًا، محدّد المراحل، واضحَ الأهداف؛ بل إنه كان متعجّلًا، يريد أن يرى أثَرَ نجاحة وثمرة غراسه في حياته. وقد أوجز المفكر الفرنسي «فرنو» في كتابه «يقظة العالم الإسلامي» حركة الأفغاني بقوله: «قد أيقظ النفوس أكثرَ ممّا دلّها على طرقٍ جديدة»[٢].

***

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

اتخذ الأفغاني في سبيل نشرِ أفكاره الخاصة بتوحيد المسلمين تحت راية واحدة، الآتي:

١- حركته الشخصيّة: من وقوفه خطيبًا، ولقاءاته بالزعماء والملوك، وإعداد الخطباء وكبار المثقفين المسلمين، مثل (عبد الله النديم) في القاهرة و(محمد عاكف) في استانبول.

٢- الكتابة في الصحف: فقد أنشأ جريدة (العروة الوثقى) وأصدرها في باريس، بمساعدة من تلميذه الشيخ (محمد عبده) للدّفاع عن قضايا العالم الإسلامي، و«تنبيه الشرقيّين» إلى ما فرّطوا فيه من واجبات، أدّى إلى سقوط العالم الإسلامي وضعفه، وبيان الطرق التي يجب أن يتّبعها المسلمون- في رأي الأفغاني- لتدارك ما فاتهم. وإيقاظ الهمَم وإيجاد رابطة بين الأمم الغربية والشرقية، وتلمّس المنافع المشتركة بينها «تقوية العلاقات العمومية بين الأمم، كما تؤيّد- جريدة العروة الوثقى- السياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيْف والإجحاف بحقوق الشرقيّين»(١).

٣- إنشاء الجمعيات والمؤسسات، واستخدامها وسيلة لنشر أفكاره: وهذه في «تكتيك» الأفغاني- كما يبدو- لا يُنظر فيها إلى التّفرقة المذهبية، أو السياسية أو العقدية.

---

(١) المصدر السابق.

أمّا عن الجمعيات والمؤسسات التي أخضعها الأفغاني لخدمة القضية، فهي على أنواع:

**الأول: جمعية «العروة الوثقى»:**

وهي جمعية إسلامية عالمية، تقوم على أساسٍ إسلامي بحت، تضمّ جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية. وكان على العضو فيها «بذل كلّ ما في وسعه لإحياء الأخوّة الإسلامية، وألّا يقدّم إلّا ما قدمة الدين، وألّا يؤخّر إلّا ما أخّره الدين، وألّا يسعى قدمًا واحدة يتوهّم فيها ضررًا يعدو على الدّين جزئيًّا أو كليًّا»[١].

وقامت لهذه الجمعية فروع، في شمال إفريقيا ومصر والهند وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي. وهي جمعية يقول مَن أرّخوا للأفغاني: إنها سريّة في تنظيماتها وأشخاصها وعلاقاتها، شأنها شأن كلّ التنظيمات التي أنشأها الأفغاني، أو أشرف عليها[٢].

**الثاني: جمعية «تنظيم الحزب الوطني»:**

وهو قائمٌ على أساس وطني قومي بحْت. ويقول (ميرزا لطف الله خان): «إنّ الأفغاني أقدم في مصر على إنشاء هذا الحزب، الذي التفّ

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

حوله الشباب، وقد افتتح الأفغاني ندوةَ الحزب الأولى التي ضمّت ثلاثة ملايين من الشباب المصري». والحزب أنشئ في مصر عام ١٨٧٩م.

ويعلّق أحدُ الباحثين المسلمين على ذلك بقوله: «ومن الواضح أن في هذا الرقم مبالغةَ كبيرة، وقد امتدت هذه المبالغة والتهويل لتشمل ما قيل عن إنجازات هذا الحزب وأعماله الخيالية»[١].

وامتدح «اللورد كرومر»- المعتمد البريطاني في مصر- صنيعَ الأفغاني في إنشاء الحزب الوطني قائلًا: «إن الحزب الوطني هو أوضح مظهرٍ لنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمان»[٢].

**الثالث: محفل الشّرق:**

وهو محفلٌ ماسوني تابعٌ لمحفل الشرق الفرنسي. وكان الأفغاني قد اتّخذ من انضمامه للماسونية وسيلةً لتحقيق أهدافه؛ فانضمّ أولًا إلى المحفل الماسوني في القاهرة عام ١٨٧٨م.

وقال بصددِ ذلك: «وأوّل ما شوّقني في بناية الأحرار (يقصد الماسونية) عنوان كبير خطير- حرية وإخاء ومساواة- ومنفعة الإنسان وسعي وراء دكّ صروح الظلم، وتشييد معالم العدل المطلق»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ولمّا تبيّن للأفغاني عقمَ الأساليب التي يتّبعها هذا المحفل وقصوره عن تحقيق الأهداف التي يرمي إليها؛ تركه الأفغاني- وكان محفل القاهرة هذا يتبع المحفل الإسكتلندي البريطاني- لينشئ محفلًا آخر تابعًا لمحفل الشرق الفرنسي ضمّ إليه تلامذته والمعجبين به. وبلغ عدد المشتركين فيه ثلاثمائة. وكان مِن بين المنتمين إليه ولي العهد «محمد توفيق» الذي أصبح والي مصر بعد ذلك[1].

**الرابع: جمعيةُ إيران الفتاة:**

وهي جمعيةٌ من البابيّين الإيرانيين، الذين فرّوا من إيران بعد سلسلةٍ من أحداث الشغب والإرهاب التي اقترفوها في بلادهم إيران عام ١٨٥٠م. ومؤسس هذه الحركة البابيّة هو «محمد علي» رئيس مذهب الشيخية الباطنية، الذي أعدم في ٨ يوليو عام ١٨٥٠م، مع أحد مريديه في تبريز، وفزع زعماء طائفة البابيّين إلى بغداد، فرارًا بأنفسهم من العقاب، وعلى رأسهم «صبح الأزل» وأخوه «بهاء الله». وعلى ذلك طلبت الحكومة الفارسية إلى الباب العالي أن ينقلهم إلى مكانٍ أبعد في داخل الدولة العثمانية، وهكذا حُملوا في صيف سنة ١٨٦٤م إلى استانبول، ثمّ نقلوا إلى أدرنة، وهناك ادّعى «بهاء الله» أنه المظهرُ الأول للإرادة الإلهية، كما قال بها الباب «مؤسس الحركة» عندئذ،

(١) المصدر السابق.

نشب الخلاف بينه وبين أخيه الأكبر، بعد أن رفض هذا وحزبه الاعترافَ بدعوة «بهاء الله»، وقام نزاع دامَ بين الفريقين، تدخّل على أثره البابُ العالي (الحكومة العثمانية)، فنفى بهاء الله وأتباعه إلى عكا، ونفى صبح الأزل وأتباعه إلى قبرص. وهكذا عاش البابيّون والبهائيّون مشتّتين منفيّين في الدولة العثمانية[١].

وبعد أن قام السّلطان عبد الحميد بتوجيه دعوةٍ إلى السيد جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٢م لزيارة استانبول، أقام الأفغاني في قصرٍ خصّصته له الحكومة العثمانية في حي شيشلي في العاصمة العثمانية، وفيها قام الأفغاني بنشاطٍ متشعّب في سبيل دعوته، ومن هذا النشاط أنه كان بمثابة «مرجع ومستشار: للبابيّين[٢].

قام السيد جمال الدين الأفغاني بتنظيم جمعية لهؤلاء البابيّين في استانبول سمّاها جمعية «إيران الفتاة» كما أرسل بعضًا منهم سرًّا إلى إيران للقيام بالدّعاية ضدّ الحكم في إيران. وكانت مجموعة من هؤلاء البابيّين تعتاش على عملية نقل مطبوعات «تركيا الفتاة»- وهي «الاتحاد والترقي»- وهي مطبوعات ممنوعة من قبل السلطات العثمانية- من أوروبا لتوزيعها على أعضاء «الاتحاد والترقي» في داخل البلاد العثمانية

---

(١) بروكلمان، المرجع السابق ص ٦٦٥ – ٦٦٦.

(٢) شريف ماردين ص ٥٥.

كما كان هذا القسم من البابيّين يقوم بطباعة الأعمال الإعلامية والأدبية التي يكتبها أعضاء جمعية العثمانيّين الجدد المخالفة للنظام العثماني[1].

ويذكر «إبراهيم تيمو» مؤسس جمعية «الاتحاد والترقي» أنّ «رضا العجمي»- تلميذ جمال الدين الأفغاني وقاتل شاه إيران الذي قال له عند قتله له: خذها بيدِ جمال الدين؛ كان يمدّه في استانبول بالصحف الممنوعة التي تصدرها معارضة عبد الحميد في أوروبا، وتدخل البلاد العثمانية خلسة[2].

والجدير بالذكر أنّ الأفغاني أقام رابطة بين جماعتي إيران الفتاة وبين تركيا الفتاة في البلاد العثمانية وأوروبا. وغير معروف حتى الآن مقرّرات جمعية إيران الفتاة في استانبول- ويسمّيها المؤرخ العثماني «أبو الضيا توفيق» باسْم الشركة الإيرانية- ولا يعلم أحدٌ أعمالها. ويبدو أنها سارت على خطة الأفغاني في التكتّم[3].

---

(١) شريف ماردين ص ٥٥ .

(٢) إبراهيم تيمو؛ مذكرات إبراهيم تيمو مؤسس الاتحاد والترقي (رومانيا ١٩٣٩) واستانبول ١٩٧٨ ص ٥٩.

(٣) الشوابكة ص ١٣٤؛ ومصطفى كامل باشا، المسألة الشرقية جـ١ ص ٢٨؛ وكتاب صادق آل بايراق بعنوانه التركي «أفغاني يه ردَّيَّه» أى الرد على الإفغاني وهو «السيوف القواطع» إنما بحروف لاتينية؛ وجريدة اللواء في ٥ مارس عام ١٩٠٠؛ ومصطفى كامل المسألة الشرقية جـ١/ ص٢٢٦؛ ومجلة العالم الإسلامي (مصر) العدد ٩٤ في يناير ١٩٠٧؛ ومصطفى كامل أيضًا جـ ١ ص ٥: نقلًا عن الشوابكة، بالتالي، صفحة ١٤٦ (الرسالة) وما بعدها.

وُفّق الأفغاني في انتقاء شخصيات شابّة من مختلف البلاد التي يحلّ بها، أو من الذين يعجبون به، كان يهتمّ بهم ويُعنى بتربيتهم، لكي يأخذوا دورهم مستقبلًا في بناء الأمة الإسلامية. وكان- كعادته- محايدًا في انتقائه لمن يقرّبهم منه، ذلك أن الهدف النهائي هو الأساس في حركته. على ذلك اختار من استانبول شابًّا أصبح فيما بعد رائدَ التيار الإسلامي في تركيا، وهو الدّاعية الإسلامي وشاعر الإسلام «محمد عاكف». كما انتقى الأفغاني أيضًا ومن استانبول الشاعر «محمد أمين» وبثّ الأفغاني فيه ثوريّته، وأصبح محمد أمين هذا هو الشاعر القومي الرائد في تركيا، والذي جمعَ في أشعاره بين القومية- وجعل لها المقام الأول- وبين الإسلام. وتأثير جمال الدين الأفغاني في فكر الاتحاد والترقي «القومي»إنما جاء إلى الاتحاديّين عن طريق زميلهم محمد أمين.

ومن تلامذة الأفغاني الذين اختارهم من استانبول الحقوقي النابه «محمد سيد أفندي» الذي أصبح- فيما بعد- محمد سيد بك، القانوني التركي البارز، صاحب كتاب «الخلافة: ماهيتها الشرعية» وصدر في استانبول عام ١٩٢٤. وهذا الكتاب عبارة عن خطبته في البرلمان التركي- في عهد أتاتورك- وقدم «محمد سيد بك» فيها الصيغةَ القانونية لموجبات إلغاء الخلافة الإسلامية، وقد ألغيت. وكان محمد سيد يرى الفصل بين الالتزام الشخصي بالإسلام وبين الشريعة الإسلامية.

ومن تلامذة الأفغاني من مصر الشيخ الإمام محمد عبده، والزعيم (سعد زغلول) قائد ثورة مصر عام ١٩١٩م تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع»، ووحّد المصريّين مسلمين وأقباطًا ضدّ الإنكليز. والجدير بالذكر أنّ سعد زغلول هو مؤسس «حزب الوفد» في مصر أول حزبٍ يفصل بين الدين والدولة، وحفز المصريّين مسلمين ونصارى للتكتّل لمقاومة العدو الأجنبي وهو الإنكليز.

***

أيّد السيد جمال الدين الأفغاني دعوةَ السّلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية، وقدّم مشروعات أكبر بكثير من طموح السّلطان. ولم يكن السّلطان يأملُ في أكثر من وحدةِ هدف بين الشعوب الإسلامية، ووحدة حركةٍ بينها. وهي وحدة شعورية عمليّة، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة.

لكنّ الأفغاني عرض على السّلطان مشروعًا يرمي إلى توحيد أهل السنّة مع الشيعة. وكانت نظرة السّلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي.

واستفاد السّلطان عبد الحميد كثيرًا من الأفغاني في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف الواضح بين فكر السّلطان وفكر الأفغاني.

ومِن أسباب الاختلاف:

١ - إيمان الأفغاني بقضية وحدةِ المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوار ضدّ السّلطان عبد الحميد، من القوميّين الأتراك والعثمانيّين عامة.

٢- دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلبٍ واحد في مواجهة الدول الأوروبية الرامية إلى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها، وفي نفس الوقت،لم يتعرّض الأفغاني للاستعمار الفرسي، ولو بكلمةِ تنديد. في وقتٍ احتاج فيه السّلطان عبد الحميد مقاومة الفرنسيين في شمال إفريقيا[١].

٣- تنديد السيد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السّلطان عبد الحميد أنّ المخابرات العثمانية حصلت على خطة أُعدّت في وزارة الخارجية الإنكليزية، واشترك فيها السيد جمال الدين الأفغاني وبلنت الإنكليزي، وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السّلطان عبد الحميد وعن العثمانيّين عمومًا.

---

(١) المصدر السابق.

و«بلنت» هذا سياسيّ إنكليزي يعمل في وزارة الخارجية الإنكليزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الإسلام» ودعا فيه- صراحة- إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيّين، وتقليدها للعرب. وقد ردّ مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على «بلنت» في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور «المسألة الشرقية» قائلًا:

«وبالجملة، فإنّ حضرة مؤلف كتاب مستقبل الإسلام يرى- وما هو إلّا مترجمٌ عن آمال بني جنسة- أنّ الأليق بالإسلام أنْ ينصّب إنكلترا دولة له، بل إنّ الخليفة يجب أن يكون إنكليزيًّا»[١].

٤- رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية ضدّ الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاءٍ من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسّع الروسي غريبًا على مفهوم الجامعة الإسلامية؛ لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيويّة واستراتيجية في الهند تدفعهم لاحتلالها. وأن ليس لدى الأفغاني اعتراضٌ على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولةِ فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تساهمها في الغنيمة وتشركها في المنفعة.

(١) المصدر السابق .

٥- الخلاف العقدي الذي ظهرَ بين العلماء في استانبول وبين السيد جمال الدين الأفغاني، وظهور كتاب الشيخ «خليل فوزي الفيليباوي» «السيوف القواطع» للردّ على عقيدة الأفغاني، وسكوت الأفغاني على هذا، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللّغة العربية، ومترجم وقتها إلى اللغة التركية العثمانية.

٦- ميل السّلطان عبد الحميد إلى تركيز كلّ السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرّين من وزرائه وضباط جيشه وصدوره العظام المتأثرين بالفكر الغربي، والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطيةٍ أوروبية تضمّ مجلسًا منتخبًا يمثل كلّ شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السّلطان عبد الحميد لهذا بحجةِ أنّ عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أنّ السيد جمال الدين الأفغاني يميل إلى الديمقراطية، وعدم تركيز السّلطات في يدِ شخصٍ واحد بعينه، وميل الأفغاني إلى الحرية في التعبير عن الرأي.

**٢- مِن مصر: مصطفى كامل باشا:**

علم السّلطان عبد الحميد، وهو يدعو إلى الجامعة الإسلامية، أنّ بمصر شابًّا نابغة هو «مصطفى كامل»، حقوقي مصري مُتخرج من جامعة (تولوز) في فرنسا قبل بلوغه العشرين من عمره، فصيحًا، ساحرَ البيان، انصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنكليزي لمصر بخطبه ومقالاته وكتبه، ويميل إلى الجامعة الإسلامية.

أرسل السّلطان عبد الحميد دعوةً إلى مصطفى كامل؛ لزيارة استانبول، فلبّى مصطفى كامل الدعوة عقب تخرجه بسنتين اثنتين، أي عندما كان مصطفى كامل في الثانية والعشرين من عمره.

أعقب السّلطان هذه الدعوة، بدعوة ثانية، فلبّاها مصطفى كامل (في ٣٠ يونيو ١٨٩٦م) وزيارة مصطفى كامل الثالثة لاستانبول كانت بعد ذلك بثلاث سنوات (٢٥ مايو ١٨٩٩م). وفيها أنعم عليه السّلطان عبد الحميد برتبة (متمايز). وفي نفس عام هذه الزيارة- أي في ١٨٩٩م- وفي شهر أغسطس منه أنعمَ عليه السّلطان بالرتبة (الثانية). وفي ١٨ سبتمبر عام ١٩٠٠م، وأثناء زيارة لمصطفى كامل لاستانبول أنعمَ عليه السّلطان عبد الحميد بالنيشان المجيدي الثالث. وفي آخر نفس هذا العام عاد مصطفى كامل إلى استانبول فأنعم عليه السّلطان عبد الحميد بالوسام المجيدي الثاني. أمّا في عام ١٩٠٤م فقد بدّل السّلطان بعد إعجابٍ شديد بحماسة مصطفى كامل للجامعة الإسلامية، رتبته إلى «ميرميران».

***

أمّا فكر مصطفى كامل داعية الجامعة الإسلامية، فكان كالتالي:

إنّ السّلطان عبد الحميد، حكيم وقديرٌ في السياسة، وأنه يعمل عملًا دؤوبًا في سبيل أنْ يعيد للمسلمين سابقَ مجدهم وعزتهم ووحدتهم.

وإنّ بعض السياسيّين البريطانيّين أمثال (بلنت) يتحاملون على السّلطان عبد الحميد، وسببُ هذا راجعٌ إلى ما يبديه السّلطان من ميلٍ شديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية، وتعميق سياسة الجامعة الإسلامية بينهم، وهو أمرٌ يحول بين الإنكليز وبين ما يطْمحون إليه من إيجاد الشقاق بين المسلمين وخروجهم على السلطنة العثمانية.

ويشهد مصطفى كامل أنه «أول مَن يشهد أمام الله، وأمام الناس، أنه- أي السّلطان عبد الحميد- سيدُ الحكماء، وقدوة الساسة، وقادة الأمم».

ويعتقد مصطفى كامل أنّ السّلطان عبد الحميد «أشدّ حنانًا على مصر من أحبّ أبنائها لها، وأصدقهم نحوها. وأنّ أسمى رغائبه أنْ يرى المسلمين في رفعةٍ وسؤدد مجتمعين حول لواء الخلافة»[1].

ويرى مصطفى كامل أنّ «المصاعب تحيط بالدولة العثمانية من كلّ جانب، وأعداؤها يدسّون لها الدسائس من كافة أنحائها، والدول كلها متّحدة ضدّها».

---

(١) المصدر السابق.

ولذلك «يبذل السّلطان عبد الحميد أقصى جهدِه في تنظيم الأمور وإصلاح الأحوال، ودفع المصائب ودرء الأخطار»[١].

ويقول مصطفى كامل عن حبّ بلاده مصر، وأهله المصريّين، وحبّه هو للدولة العثمانية، رائدة حركة الجامعة الإسلامية، يقول: «تسمعون مَن يقول: ما بال المصريّين يحبّون الدولة العثمانية، ويتفانون في نفعها، ولا يألون جهدًا في إعلان ذلك الحبّ؟ إنّنا نحب الدولة العثمانية، لأنّنا قبل كلّ شيء نريد أنْ نرى دولة شرقية تصدر منها الأنوار إلى كلّ أمّة شرقية، نحبّها لأنّنا بصفتنا مسلمين، نرى أنها تحمي المسلمين في الشرق، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة.

فمملكةُ الخلافة الإسلامية، هي في الحقيقة مملكتنا، وقبلتنا التي نلجأ إليها، ونحوها نتّجه، وإذا قصّرنا في واجبٍ نحوها، نكون بلا ريب قد قصرنا في أعظم واجب»[٢].

***

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

واعتبر مصطفى كامل المسألة الشرقية، مسألة دينية، قائمة على أساس معاداة أوروبا المسيحية للعالم الإسلامي، والدولة العثمانية بصفة خاصة. وقال: إنّ بقاء الدولة العثمانية، ليس ضروريًّا للمصريين والمسلمين فقط، بل هو ضروري للنوع البشري عامة. وأنّ بقاء سلطانها فيه سلامة أمم الغرب والشرق.

***

وكان مصطفى كامل يعدُّ الدعوة إلى نقل الخلافة من الدولة العثمانية- وهذا يعني الدعوة إلى خلافة عربية- يعدّها دسيسةً بريطانية، كان قصد الإنكليز منها أنْ يكون عِقْد الخلافة في يدهم لا في صدر الإسلام.

***

لقد استخدم مصطفى كامل قدرته الخطابية، وقلمَه في الدعاية للجامعة الإسلامية، وتضامن المسلمين، ومحاولة درْء الأخطار الغربية عن العالم الإسلامي. واستطاع أن يوظّف- بنجاح كبير- العناصر الدينية والسياسية والوطنية في خدمة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

***

بقي القول: بأن السّلطان عبد الحميد كان يتّفق مع مصطفى كامل باشا في المقاومة العاقلة السلمية، وفي استبعاد المواجهة العسكرية مع دول الغرب، حيث لم تكن الدولة العثمانية على استعداد لهذه المواجهة.

**٣- مِن سوريا: الشيخ أبو الهدى الصيادي:**

عُرف عن أهل الشام سَبْقُهم إلى الاتصال بالعثمانيّين؛ لإنقاذ بلادهم من اشتداد الظلم المملوكي[١]، كما عُرف عنهم محافظتهم على التراث الإسلامي، ووقوفهم أمام غزو مظاهر الثقافة الغربية الوافدة إليهم من الغرب عن طريق بيروت. ولم يستطع قنصلٌ أجنبي دخول دمشق، إلّا في حراسة إبراهيم باشا المصري عام ١٨٣٣م عندما سمح هذا الباشا لقنصل إنكلترا بدخول دمشق، ومع ذلك فقد ثار أهل دمشق لهذا.

وانْحاز أهل الشام إلى جانب الدولة العثمانية في نزاعها مع محمد علي باشا عند غزوه سوريا عام ١٨٣٢م. ووقف السوريون وقفة أخوة مع بقية العثمانيّين والدولة العثمانية أثناء حربها ضدّ اليونان، عام ١٨٩٧م.

ونتيجة للضغوط الثقافية من الدول الأوروبية وفرنسا على وجه الخصوص على بلاد الشام، ومقاومة الأهالي عمومًا لهذا الضغط المتمثل في المدارس الأوروبية، وعلاقات نصارى الشام بالغرب؛

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٧٠ .

أراد السّلطان عبد الحميد أن يؤكّد ثقة الدولة العثمانية بالسوريّين عمومًا؛ فأكثر من الاستعانة بهم في المناصب الكبرى والحسّاسة في الدولة، من سياسية وعسكرية، وجعل منهم المستشارين. ومن هؤلاء «عزت باشا العابد» الدمشقي و«نسيم باشا ملحمة» اللبناني و«سعيد باشا الكردي»، كما أخذ منهم الشيخ «أبو الهدى الصيادي» مستشارًا له.

***

والشيخ (أبو الهدى الصيادي) من أشهر علماء الدين في عصره، ومن مناصبه نقيب أشراف عموم ولاية حلب. وكان في الخامسة والعشرين من عمره، (عام ١٨٧٣م) زمن السّلطان عبد العزيز.

قرّبه السّلطان عبد الحميد، وقلّده مشيخة المشايخ في دار الخلافة، وأصبح يُلقب بلقب «مستشار المُلْك» وقضى في خدمة الدولة العثمانية ثلاثين عامًا، يدافع عن الخلافة العثمانية، ويؤكّد واجب المسلمين في الاعتراف بها، والتمسّك بها، والوقوف إلى جانب سلطانها.

وانعكست هذه العلاقة بين السّلطان عبد الحميد، وبين أبي الهدى، على بعض أبناء سوريا، فأوصلهم أبو الهدى إلى مراتب عالية في العاصمة العثمانية نفسها (استانبول)، وفي حلب وفي طرابلس. وعطف على العلماء والفقهاء بصفة خاصة.

وكان الشيخ أبو الهدى الصيادي، مخلصًا النصيحةَ للسلطان عبد الحميد، وذلك من خلال الوثائق والأوراق التي ضبطها رجال حكومة «الاتحاد والترقي» بعد خلعهم السّلطان؛ حيث تبيّنوا من خلال هذه الوثائق أنّ الشيخ أبا الهدى الصيادي لم يكن مع السّلطان في مقام المنافق والمتجسّس- كما زعم أعداؤه وأشاعوا عنه- بل كان في مقام النّاصح المرشد، وأنه لم يخاطب السّلطان مدّة اتصاله به إلّا بما فيه نفع الأمة والدولة ورعاياها.

بل وأنّ الحملة التي تعرّض لها أبو الهدى، والتي جاء أكثرها من أبناء بلدته قديمًا وحديثًا، لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسرية التي عُرفت بها حلب في هذه الفترة، حيث وقفت بعض الأسر الحلبية، مثل (أسرة الكواكبي) موقف «العداء الناشئ عن الحسد» من (آل الرفاعي) التي ينتمي إليها الشيخ أبو الهدى الصيادي؛ لما نالته أسرته من مكانة وحَظْوة في استانبول.

وكان الشيخ الصيادي بمثابة المستشار الأول للسّلطان في تنظيم أمور حركة الجامعة الإسلامية. وكان يرأس ما يمكن اعتباره اللجنة المركزية لمشروع الجامعة الإسلامية في العاصمة. وهذه اللّجنة تعمل تحت الإشراف المباشر للسّلطان عبد الحميد.

لم يكتفِ الشيخ أبو الهدى الصيادي بالفكر والحركة في خدمة الجامعة الإسلامية، بل ألّف في بيان مظاهر أهميتها في حياة المسلمين موضّحًا أن الأسس الهامة فيها هو منصبُ الخلافة. وأكد على ضرورة التفاف المسلمين حول منصب الخلافة، وبخاصة في ظروف العداء الخارجي للدولة المسلمة، وسمَّى تأليفه وكتابه هذا باسْم «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد»[1].

**٤- مِن سيبريا: عبد الرشيد إبراهيم:**

وهو داعية إسلامي، كاتب وقاضٍ ورحّالة. ولد في سيبريا عام ١٨٥٣م. ومات في اليابان، أثناء اشتغاله بالدعوة الإسلامية بين اليابانيّين عام ١٩٤٤م. تلقى تحصيلًا دينيًّا في مكة والمدينة، ووصل إلى استانبول، وأصبح من دعاة الجامعة الإسلامية، وأوقف حياته على هذا المبدأ. والجامعة الإسلامية كانت نقطة حركته، ومرتكزَها في سياحته الطويلة للدعاية للإسلام وللجامعة الإسلامية، في كلٍّ من تركستان ومغولستان والصين واليابان ومنشوريا وبلاده سيبريا، وفي كوريا وسنغافورة وبلاد الهند والحجاز. وكانت الجامعة الإسلامية هي لبّ لقاءاته بالناس في كل هذه البلاد.

---

(١) جريدة لسان الحال السورية في ١٠ مارس ١٨٨٦؛ ويوسف الحكيم، سوريا في العهد العثماني ص ٥٨؛ ومحمد كرد علي، مذكراته جـ ١ ص ٢٤٦: نقلًا عن الشوابكة من ص ٦٦ إلى ص ٦٩.

وكان بحثه عن سرّ تقدّم اليابان، ومحاولته تشخيص أسباب انحطاط العالم الإسلامي، ينطلق من تفكيره في ضرورة الوحدة الإسلامية.

ومِن الأمور التي اهتمّ بها عبد الرشيد إبراهيم، كيفية تبليغ الدعوة الإسلامية لليابانيّين. وكان هذا الأمر يؤرقه، ويسلبُ النوم منه؛ ذلك لأنّ اليابانيّين- كما يقول عبد الرشيد إبراهيم- كانوا قريبين جدًّا من الإسلام في عاداتهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم وبنيانهم العائلي المتماسك. ولاحظ أنّ البعثات التنصيرية تقوم بتخريب البنية الأخلاقية لليابانيّين. لذلك أخذ عبد الرشيد إبراهيم يدعو علماء المسلمين إلى المسارعة إلى اليابان لنشر الإسلام وربط اليابانيّين باستانبول عاصمة الخلافة ومقرّ حركة الجامعة الإسلامية.

***

يثير عبد الرشيد إبراهيم همّة الهنود بنقده بأسلوبٍ صريح وحادّ، سياسة الإنكليز في الهند، وأنّ الإنكليز يظلمون الشعوب الإسلامية، ويستغلونها بعد أن يرتَدُوا أقنعةً مزيفة تظهرهم أمام هذه الشعوب بمظهر مختلف. ويرى أنّ الإسلام هو أكبر عدو للإنكليز المستعمرين، لذلك استهدف الاستعمار الإنكليزي الإسلامَ نفسه ليضعفه في نفوس المسلمين؛ حتى تسهل قيادة الإنكليز للشعوب المسلمة.

يقول عبد الرشيد إبراهيم إنه «سيأتي زمان يلجأ فيه كلّ المجوس في الهند إلى الإسلام. ولن يصمدَ براهما وزردشت وبوذا أمام الإسلام». و«بقدر ما يبعد المسلمون عن الإسلام بقدر ما تقترب الأمم الأخرى منه».

***

وفي معرض حديث عبد الرشيد إبراهيم عن الجامعة الإسلامية يقول: «لو عمل المسلمون بالإسلام، لم تكنْ تستطيع روسيا- ليس فقط قيادة وتوجيه مائتين وخمسين ألف جنديّ مسلم يعملون في جيوشها- وإنما لم تكن تستطيع مجرد الاحتفاظ بالمسلمين ضمنَ حدودها، ولما اشترك المسلمون في الحروب المغايرة للإنسانية التي تقوم بها روسيا. ولما كانت إنكلترا تستطيع أن تدفع بجنود مصر لضرب مسلمي السودان، ولما كانت إنكلترا تستطيع كذلك دفع مسلمي الهند للاعتداء على أفغانستان»..

وعن الصراع بين المسلمين وغيرهم، يقول عبد الرشيد إبراهيم:

«أمامنا صراع مستمرّ بين الشرق والغرب. والنتيجة- إذا فكرنا- هي أنّ المسلمين مهزومون أمام الغربيّين- في الآونة الأخيرة- هزيمة فكرية، أكثر منها هزيمة عسكري؛ إنّ آلات الحرب في العالم الغربي

اليوم ليست في الواقع من أجل الحرب. إنها عبارة عن تخويف الفكْر المضادّ لهم في سبيل تدعيم أفكارهم هُم. ولو طالب المسلمون بحريّاتهم من وجهة نظر الإسلام وقدّروا معنى الإسلام بحق؛ فسيدركون معنى الحياة. وبالتالي يمكنهم أنْ يكونوا بمثابة الهادي والرائد لبلدان الشّرق كلها. ولا شكّ أنّ كلّ آمال البلدان الغربية في ذلك الوقت ستُصاب من أساسها بالدّمار. في ذلك الوقت ستنير الحضارة الحقيقية كلَّ أرجاء العالم. والحضارة الحقيقية هي الإسلام»

***

خدم عبد الرشيد إبراهيم فكرةَ الجامعة الإسلامية بتجْواله الكثير في البلدان الإسلامية، والبلدان غير الإسلامية يشرح الإسلام، ويعظُ، ويشدّ الانتباه إلى القيم الإسلامية، وضرورة الالتفاف حول الإسلام، وحول خليفة المسلمين. وقام بشرح تجربته من تجْواله هذا إلى النخبة المثقفة إسلاميًّا في استانبول، فتأثر بها شاعر الإسلام «محمد عاكف» وظهر هذا التأثير في أشعاره وقصائده.

كما قـام عبد الرشيد إبراهيم بـدورٍ كبير في توعية مسلمي تركستان بالخطر الروسي وأبعاده. وقام بتأسيس المساجد، وافتتاح المدارس الإسـلامية في بعض الأماكن التي ارتحـل إليها وزارها. وجـاهد كثيرًا حتى اعترفـت الحكومـة اليابانية بالإسلام (عام ١٩٣٩م) .

وافتتح جامع طوكيو (١٩٣٧م). وعلّم فيه كثيرًا من الطلبة اليابانيّين. وجاهد عبد الرشيد ابراهيم في استقرار الإسلام في اليابان. وقد توفي هذا الداعية المجدّ في ٣١ أغسطس ١٩٤٤م.

***

ولعبد الرشيد إبراهيم سبعةُ كتب، أشهرها (رحلته في آسيا) في أوائل القرن العشرين، وكتاب (آسيا في خطر)، وهو ترجمة تركية عن اللغة اليابانية، وكتاب (دين الفطرة) وكلّها باللغة التركية، وطبعه في استانبول[1].

**ب- الطرقُ الصوفيّة:**

اعتمدت الحكومة العثمانية منذ تأسيسها على شيوخ الطرق الصوفية من الزّهاد في بعض أسس سياستها الخارجية. ففي عهد الفتوحات العثمانية في أوروبا، كانت الحكومة العثمانية ترسل هؤلاء الزهاد إلى المناطق الأوروبية المراد فتحُها، فيقيمون فيها، ويتعرّفون على الأهالي، ويتعرف الأهالي عليهم، وهذا نوعٌ من الدعاية العثمانية للإسلام، حتى إذا جاءت الجيوش العثمانية الفاتحة بعد ذلك، تجد أرضًا تعرفها وتعرفهم.

(١) عبد الرشيد إبراهيم، رحلته في العالم الإسلامي واليابان جـ١ ص ١١ – ١٤ ودائرة معارف اللغة وآدابها جـ١ ص ٢٢/٢.

ثمّ استخدمت الحكومة العثمانية هؤلاء الزّهاد في معرفة الرأي العام الإسلامي واتجاهاته؛ سواء في داخل الدولة، أو في خارجها، من أقصى تركستان إلى شمال إفريقيا.

وسار السّلطان عبد الحميد على نفس السياسة في الدعاية للجامعة الإسلامية، فاتخذ هؤلاء المتصوفة الزّهاد المتطوعة لخدمة الجامعة الإسلامية، وبخاصة أنها تمثل عندهم أساسًا في تفكيرهم. وكوّن السّلطان رابطة بين مقرّ الخلافة- استانبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطّرق الصوفية في كل أنحاء العالم الإسلامي.

وينبغي هنا إضافة، أنّ السّلطان عبد الحميد- وإن كان قد اتّخذ من هؤلاء المتصوفة الزّهاد وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، فإنه- اتخذَ غيرهم من غير المتصوفة الزّهاد أيضًا وسيلة ودعامة لفكره في التجمع الإعلامي.

***

تكوّنت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية، مكوّنة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، الذين عرفوا بالتقوى والزّهد والغيرة الدينية؛ حيث عملوا مستشارين للسّلطان في شئون الجامعة الإسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادي)

شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ (رحمة الله) أحد علماء الحرم المكي، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم.

وكان هناك هيئات فرعية لهذه اللّجنة في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية. واحدة في مكة المكرمة تحت إشراف شريف مكة، ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية في موسم الحج بين الحجاج. وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين أتباع الطريقة القادرية الذين يأتون بكثرة من شمال إفريقيا لزيارة الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة. وقد قدّرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (٢٥٠٠٠) نسمة. وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الإفريقي من بغداد، من أعمالٍ ضد الفرنسيين وضدّ الاستعمار الفرنسي بأنها: «استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية»[1].

(١) إحسان ثريا، وثائق فرنسية عن نشاط الطرق الصوفية التي لعبت دورًا في/ سياسة السّلطان عبد الحميد الإسلامية في شمال إفريقيا، ص ٢٨٧؛ ونفس المرجع ص ٢٨٦؛ ووثيقة عن فعاليات السّلطان عبد الحميد، المرجع السابق ص ١٧٩؛ ودور الطرق الصوفيه، مجلة الإسلام بأنقرة ص ٤٠ –٣٤.

وللجنة المركزية للجامعة الإسلامية في استانبول فرعٌ إفريقي يعمل في شمال افريقيا، وهو يعمل في سريّة تامة، مهمّته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: الشاذلية والقادرية والمدنية[١].

***

وبلغ مِن نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أنْ وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال إفريقيا بقولها:

«.. ويمكن للسّلطان عبد الحميد- بصفته رئيسًا للجامعة الإسلامية- أن يجمع- من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال إفريقيا- جيشًا محليًّا منظمًا، يتمكّن- إذا لزم الأمر- أن يقاوم به أي قوة أجنبية»[٢].

***

ويبدو أنّ السلطات الفرنسية قد فشلت في الكشف عن وسائل تابعية المسلمين في شمال إفريقيا بعاصمة الخلافة استانبول، وكلّ ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السّلطان عبد الحميد في

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

نفوس مسلمي شمال إفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١- إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال إفريقيا.

٢- منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى: عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[١].

***

وأرسل السّلطان عبد الحميد قافلة من المتصوفة والزهاد إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيّين، لإعطائها للعرب. واتصلت هذه القافلة أيضًا ببعض حكام الجزيرة العربية، ولاسيما الحجاز[٢].

***

وهناك اتصالات بين السّلطان عبد الحميد بوصفه رئيسًا للجامعة الإسلامية، وخليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية؛ وبين تجمعات

(١) المصدر السابق.

(٢) المذكرات ص ٧٢.

الطّرق الصوفية وشيوخها في تركستان وفي جنوب إفريقيا، وفي الصين. بعضها كُشف عنه النقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد.

**جـ- تعريب الدولة العثمانية:**

كان السّلطان عبد الحميد يرى- منذ أن تولى الحكم- ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: «اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على (خير الدين باشا)- التونسي- عندما كان صدرًا أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا. وقال: «إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى- للعصر التركي- شيء بعد ذلك. كان (سعيد باشا) رجلًا فارغًا، وكلامُه فارغًا. ما دخل هذه المسألة بالعصر التركي؟! المسألة غير هذا تمامًا، هذه مسألة، وتلك مسألة أخرى. اتخاذنا اللغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه- على الأقل- أن يزيد ارتباطنا بالعرب»[١].

***

(١) ضياء قارال، المرجع السابق صفحة ٤٠٣ نقلًا عن مذكرات الدكتور عاطف حسين الطبيب المعالج للسّلطان عبد الحميد نقلًا عن السّلطان نفسه في/ حديث خاصّ للدكتور. انظر الدفتر رقم ١١ من هذه المذكرات في مكتبة المجمع التاريخي التركي بأنقرة.

والواقع: أن السّلطان عبد الحميد كان يشكو- وبخاصة في بدايات حكمه- من أنّ الوزراء وأمناء القصر السّلطاني كانوا يختلفون عنه في التفكير، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار الغربية. ويشكلون مجموعة ضغط على القصر، سواء في عهد والده السّلطان عبد المجيد، أو في عهد عمّه السّلطان عبد العزيز، أو في عهده هو.

***

لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السّلطان عبد الحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط؛ بل تعدّاه إلى معارضةٍ مِن بعض علماء الدين[١].

***

## ٥- نشر العلوم الإسلامية، وإنشاء مراكز للدراسات الإسلامية:

بدأ السّلطان عبد الحميد عهده بالاهتمام بالحركة التعليمية نتيجة حبّه للمعارف. ورفع درجة المدرسة المُلْكِيَّة مدرسة عليا لتخريج موظفين واعِين لإدارة البلاد. وأنشأ مدرسةً للحقوق اهتمامًا بالقضاء. ودفع من جيبه الخاص مبلغًا كبيرًا إسهامًا في مصاريف إنشاء المدرسة التجارية.

(١) شهاب الدين تكين ضاغ- أستاذي عليه رحمة الله- في بحثه المقدّم إلى المؤتمر الدولي الرابع للدراسات التركية- شعبة التاريخ، بعنوان انهيار الدولة العثمانية، عُقد المؤتمر في استانبول في سبتمبر ١٩٨٢.

ولكنْ حدث أن قدّمت المخابرات العثمانية تقريرًا للسّلطان: بأن المدرسة المُلكية قد تحوّلت إلى ميدان لتيار القومية التركية، وإعداد دعاة لهذه القومية. تنبّه السّلطان عبد الحميد لذلك، وبخاصة أنه يتعارض مع سياسته الإسلامية المعارضة أصلًا للقوميات. فقام بنقل الأساتذة القوميّين إلى أماكن أخرى. فقام الطلبة بمظاهرة ضدّ السّلطان لذلك[1].

رأى السّلطان أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثرًا بالفكر الغربي، وأنّ التيار القومي: هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شئونها ووجّهها- من خلال نظرته السياسية- إلى الدراسات الإسلامية. فأمر بالآتي:

- استبعاد مادّة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية.
- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة[2].
- الاقتصاد فقط على تدريس التاريخ الإسلامي بما فيه العثماني.

(١) عثمان أركين، تاريخ التربية التركية صفحات: ٦١٤ – ٦١٥ و٨٤٠ و١١٨٠ – ١٨٨٢ على التوالي.

(٢) عثمان أركين، تاريخ التربية التركية صفحات: ٦١٤ – ٦١٥ و٨٤٠ و١١٨٠ – ١٨٨٢ على التوالي.

وجعل السّلطان مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية، ووجّهها لخدمة الجامعة الإسلامية: سياسته وسياسة الدولة العثمانية.

ومن إجراءاته التعليمية في خدمة سياسته الإسلامية: أنشأ السّلطان عبد الحميد في استانبول، باعتبارها مقرَّ الخلافة ومركز السلطنة «مدرسة العشائر العربية» مِن أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب وسورية وبغداد والبصرة والموصل وديار بكر وطرابلس الغرب واليمن والحجاز، وسناجق بنغازى والقدس ودير الزور.

ومدرسة العشائر العربية، في استانبول، أقيمت لتتّسع (لخمسين) طالبًا يختارون بالقرعة وبالاختيار، وزاد هذا العدد فيما بعد إلى (٢٥٠) طالبًا. وكان المتخرجون في هذه المدرسة يدخلون المدارس العسكرية العالية. ويحصلون بعد ذلك على رتبٍ عالية، كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة المُلكية- وهي مدنية- يدرسون فيها سنة، ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثمّ يعودون إلى بلادهم.

ومدّة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في استانبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفّل الدولة العثمانية بكلّ مصاريف الطلاب، ولكلّ طالب «إجازة صلة الرحم». وهي إجازة مرّة كلّ سنتين، وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في استانبول كان كالآتي:

**السنة الأولى**: القرآن الكريم- الأبجدية- العلوم الدينية- القراءة التركية- إملاء- تدريب عسكري.

**السنة الثانية**: القرآن الكريم- التجويد- العلوم الدينية- الإملاء- الحساب- القراءة التركية- تحسين الخط- تدريب عسكري.

**السنة الثالثة**: القرآن الكريم- التجويد- العلوم الدينية- قصص الأنبياء- القراءة والصرف التركي- الإملاء- حسن الخط- الحساب- الجغرافية- الفرنسية- التدريب.

**السنة الرابعة**: القرآن الكريم- التجويد- العلوم الدينية- الصرف العربي- اللغة الفارسية- الكتابة والنحو التركي- الجغرافية- الحساب- حسن الخط- المعلومات المتنوعة- الرسم- اللغة الفرنسية- حسن الخط الفرنساوي- التدريب.

**السنه الخامسة**: القرآن الكريم- التجويد- العلوم الدينية- النحو العربي- اللغة الفارسية- التاريخ العثماني- القواعد العثمانية- الكتابة والقراءة التركية- المكالمة التركية- الجغرافية- الحساب- الهندسة- حسن الخط- المعلومات المتنوعة - حفظ الصحة- أصول إمساك الدفاتر- اللغة الفرنسية- حسن الخط- حسن الخط الفرنساوي- الرسم- التدريب[1].

***

(١) المصدر السابق.

كما أنشأ السّلطان عبد الحميد «معهد تدريب الوعّاظ والمرشدين» الذي أقيم لإعداد الدعاة للجامعة الإسلامية، ويتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي، يدعون للإسلام، ويدعون للخلافة، وللجامعة الإسلامية[١].

***

ولا شكّ أن كلّ طلاب الدراسات الدينية، في المدارس والمعاهد كانوا بالضرورة دعاة للإسلام، وللجامعة الإسلامية.

ومِن نشاط السّلطان عبد الحميد واهتمامه بالعلوم الإسلامية، نشاطُه في الصين:

خرجت الصحافة في استانبول، بخبر مفاده أن عدد مسلمي الصين يقرب من سبعين مليون نسمة، وأن مسلمي الصين متحمسون، يحبون العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الإسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس.

وأنّ في بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجدًا وجامعًا يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السّلطان عبد الحميد الثاني، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تقرأ باللغة العربية،

(١) مصطفى طوران، الانقلات العثماني ص ٣٧، القاهره، بدون تاريخ.

ثمّ تترجم إلى اللغة الصينية، وأنّ الدعاء للسّلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد إلى كلّ مساجد الصين وجوامعها[1].

تأسّست في بكين- عاصمة الصين- جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسمَ «دار العلوم الحميدية»، نسبة إلى السّلطان الخليفة عبد الحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم «الجامعة الحميدية في بكين» وذلك في تقريرٍ له إلى وزارة خارجيته في باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلاف من المسلمين الصينيّين. وحضره أيضًا مفتي المسلمين في بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك. كما حضره أيضًا من وزارة المعارف الصينية عددٌ كبير من الموظفين والمسئولين. وقرّر وزير المعارف الصيني حضورَ الافتتاح بنفسه، لكنه لم يتمكّن من ذلك لظروف خارجة عن إرادته. فقد قامت عاصفةٌ جليدية منعته من الحضور، إذْ كانت الجامعة الحميدية على بعد ساعتين من منزله.

وفي مراسم الافتتاح، أُلقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسّلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الخطبة والدّعاء إلى اللغة الصينيّة. و«بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حارًّا بدافع

(١) جريدة «ترجمان حقيقت»، مقال «رسالة من بكين» في ٢٦/ ١٢/ ١٣٢٥ .

فرحتهم» و«إن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطًا واضحًا برباط الدين المتين. وإن إيرادَ الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة؛ قد أثّر تأثيرًا بالغًا في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرّك الدموع في أعينهم»(١).

***

## هـ - خدمةُ الحرمين الشريفين:

اهتمّ السّلطان عبد الحميد ببناء المساجد، وتعمير القديم منها، وصرف جهدًا كبيرًا في بناء وترميم الأسواق التجارية، وسبل المياه، والمدارس، وبناء المساجد، والتبرع لإنشاء المساجد في العالم.

وكان إذا طرق سمعه أنّ بلدًا من بلدان الدولة العثمانية- أو قرية أو ناحية- لم يكن فيها مسجد، أو جامع، تقام فيه الجمعة؛ يصدر إرادته ببناءِ جامع أو مسجد فيها. وقد بنى وأعاد بناء عددٍ من المساجد المهمّة في المدن العربية، وشجّع الحج(٢).

---

(١) إحسان ثريا، جامعة السّلطان عبد الحميد في بكين؛ التعليق ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) سعيد سفر الغامدي، موقف المعارضة في المشرق العربي من حكم السّلطان عبد الحميد الثاني؛ الشام ومصر ١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٠٩م رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور محمد محمود السروجي مُجازة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٦ - ١٩٨٥ م. وستذكر فيما بعد باسم الغامدي. مصطفى الواعظ، الروض الأزهر ص ٢٨٠ - ٢٨١ الموصل ١٩٤٨ نقلًا عن الغامدي ص ٨٤.

وبجانب هذه العناية بالمساجد والجوامع في الدولة وفي خارجها، صرف عنايته إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة، فكلّف- أي السّلطان عبد الحميد- القائمقام أركان حرب السيد (محمد صادق) بعملية تعمير وإصلاح في الحرم المكي بناءً على تقرير هذا الضابط. يقول فيه: «إن الحاجة تقتضي ذلك لعدة أسباب:

منها تعـذّر قراءة اللوحات الخطيّة الموجـودة في الحـرم، وهي عشر لوحـات: على مبنى زمزم، وعلى باب السلام العتيق. ولأنّ شكل الجدران في الحرم المكي، قد أصبـح رديئًا نتيـجة سقـوط طلاء الجدران، وتكسّر الحجارة المفروشة على أرض المطاف، وعلى منطقة أسفل القباب، وتفلقها مما يمكن أن يعيق حركة الحجيج. وإنّ الحـرم المكي في حاجةٍ إلى إعادة بناءِ بعض المباني مما حوْل الكعبة، وفي إطار الحرم.

ويبرز تقرير الضابط المهندس السيد (محمد صادق) عددًا من الاحتياجات الأخرى:

منها ضرورة إنشاء عدة آبار كبيرة ليصبّ فيها زمزم، وتحديد أماكن صلاة النساء بشبكة حديدية، وغير ذلك من الاحتياجات.

وقدّر كبيرُ المهندسين العثمانيين، القائمقام أركان حرب السيد «محمد صادق» احتياج الحرم المكي بألفين وثمانمائة وثمانٍ وأربعين ليرة عثمانية[1].

***

ويذكر (حسين باسلامه): أن السّلطان عبد الحميد، قد عمر في سنة ١٢٩٩ هـ في الكعبة المعظمة، وفرش باطنها بالرخام.

***

«وفي عام ١٢٩٧ هـ- صدرت إرادة سنيّة من السّلطان عبد الحميد بتجديد بعض مداخل سقف الكعبة، وتجديد رخام المطاف، وتجديد الأحجار في أرضية الكعبة. وفي نفس السنة أيضًا تمّ تجديد مفتاحين للكعبة صُنعا من الفضّة في استانبول، وتجديد المفتاح الفضّي مع الستارة والقفل في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، أمّا ستارته القديمة، فقد أرسلت مع موظف مخصوص إلى استانبول. وكان هذا الموظف هو الشيخ «محمد الأمين المكي». وفي نفس العام تمّ ترميم مقام إبراهيم

(١) محمد حرب، خريطة لمنطقة الحرم المكي وتقرير هندسي عنها، مجلة الدائرة، الرياض، العدد الثالث، السنة عشرة ربيع الآخر ١٤٠٨- نوفمبر ١٩٨٧م ص ٤٣- ٥٤؛ وحسين باسلامه، تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٢٣، جدة ١٣٥١. وقد نقل حسين باسلامه عن الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد دحلان.

عليه السلام، والعتبة العليا لباب إبراهيم، كما تمّ تجديد الطلاء والنقش والزخرفة فيهما. كما أهدى السّلطان عبد الحميد تسع شمعدانات ضخمة مصنوعة من الفضة مع مجموعةٍ من المباخر لإيقادها كلّ مساء عند عتبة البيت المعظم. وتمّ تعمير أرض الحرم الشريف وطلاؤها بصورة ممتازة. وتعمير ستة أعمدة من الرخام في جهة المدرسة الداودية، وتجديد بعض القباب أمام مدخل باب علي، وتعمير كل الأرصفة الكائنة تحت القباب.

أمّا في عام ١٢٩٩هـ، فقد تمّ توسعة دائرة الحرم المكي الشريف بناءً على إرادة سنية بذلك من السّلطان عبد الحميد.

وفي عام ١٣٠١ هـ تمّ تجديد العلامات في الصفا والمروة، وأزيلت الرمال المتراكمة في وادي إبراهيم، وأزيلت أيضًا الرمال التي جرّفها السيل إلى أبواب الحرم الشريف. كما أمر السّلطان بتجديد الدّهان والنقوش في كلٍّ من مقام إبراهيم وبئر زمزم. وأمر بشمعدانات فضيّة وقناديل بمبلغ (٢٥١٤٤) قرشًا عثمانيًّا لمكة المكرمة. وبإرسال مصاحف وكتب دينية إليها.

كما أمر بتجديد وإنشاء مجرى عين زبيدة وطرقها، وهي عينٌ هامّة لمكة المكرمة. وكان العمل في هذا المشروع برئاسة لجنة تعمير، على رأسها (عثمان نوري باشا) وعضوية الأمير (آلاي صادق بك) وآخرين.

وقد بدأت هذه اللّجنة أعمالها، من وادي نعمان- وكان يبعد مسافة ثمان ساعات عن مكة المكرمة- وهو مجرى ماء عين زبيدة. واستمرّ العمل في ذلك أربع سنوات ليلًا ونهارًا . وعمل بالمشروع أكثر من (ثلاثة آلاف عامل) كانوا يعملون ليلًا ونهارًا، وبذلك أقاموا وعمّروا وجدّدوا بقوة وهمّة عملًا ييسّر للحجاج موارد الماء العذب النقي.

قامت لجنةُ عين ماء زبيدة، بإنشاء ثمانية عشَر خزّانًا وعين ماء في أماكن مكة المكرمة كافّة. وأقامت عيون ماء متعدّدة الصنابير في أطراف الحرم الشريف لكي يتوضأ منها الحجاج. وُمدّت كذلك ماسورة مياه لكلّ واحدة من المنشآت التالية: مستشفى الغرباء، ومطعم خاصكي سلطان الخيري المجاني، ودائرة الحكومة، وثكنة المدفعية السلطانية، ودار البرق (التلغراف)، والفرن العسكري، ومراكز الخفر النظامية، والحمامات.

وكانت قِرْبَة الماء قبل ذلك تُباع في موسم الحج بمبلغ ريال واحد. فانخفض سعرها بالتالي إلى عشرين بارة فقط.

وتكوّنت لجنة مالية لهذه الإنشاءات برئاسة مفتي مكة المكرمة الحنفي، ورئيس العلماء الشيخ عبد الرحمن سراج.

وكان كلّ ذلك عام١٣٠١ هـ.

بعد الانتهاء من مشروع عين زبيدة وملحقاته، صدرت إرادة سلطانيّة تقضي بالعمل في مشروع مياه عين الوزيرية لخدمة سكّان جدة. وكان عددُ سكان جدة في ذلك الوقت (عام ١٣٠٣م) (٣٠٠٠٠) نسمة.

عمل في مشروع مياه الوزيرية (٣٥٠٠) عامل. ومياه الوزيرية في الجهة اليمانية من رغامة على بعد ساعتين ونصف ساعة من جدة. واستمرّ العمل في هذا المشروع ثلاث سنوات ونصف سنة، حتى تمّ تزويد جدة بالمياه. وبذلك تخلّص أهالي جدة، وعشرات الآلاف من الحجاج المسلمين من مضرّة شرب الماء من الحُفر التي تعفّنت فيها المياه. وتمّ إنشاء خزّانات بعيون ماء في أحياء جدّة، كما مدّت ماسورة مياه إلى كلٍّ من الثكنة السلطانيّة، ودائرة الحكومة، والمستشفى العسكري. وكان مِن ضمن الذين أسهموا بجهودٍ كبيرة في هذا المشروع- بجوار الفنيّين العسكريّين العثمانيّين- كلّ من (أحمد قمصاني) رئيس بلدية جدة، وكاتب لجنة الإنشاءات علي المصري، وكذلك السيد (محمد طاهر الداغستاني).

وفي نفس العام (١٣٠٣ هـ) تمّ تطهير وتعمير أحواض المياه في عرفات، وتمّ تنفيذ مشروع مدّ «منى» بالماء من ماءِ عين زبيدة، الذي عبر من وادي المفجر، مع إنشاء خزانين ضخمين للمياه (١٣٠١ هـ). وفي منى أيضًا تمّ إنشاء صيدلية، ومستشفى، تستوعب أربعين سريرًا

(١٣٠٠ هـ). وتمّت تسوية وتعمير الطرق المؤدية إلى جبل ثور؛ لأنّ طرقَه كانت حادّة للغاية وغير منتظمة، مما كان يتسبب عنه مشقة عظيمة للزوار والحجاج (١٣٠٦ هـ).

وبناءً على الإرادة السلطانية، تمّ إنشاء مطبعة الولاية في مكة المكرمة لطبع الكتب الدينية باللّغات العربية والتركية، والفارسية، والهندية، والجاوية. وتطبع الكتب الإسلامية وتوزعها على البلدان الإسلامية.

كما تمّ إنشاء دارٍ للبريد والبرق في طابقين، وكان أمام مبني الحكومة في مكة المكرمة، وإنشاء خطوط برقية (تلغرافيّة) من كابل تلغراف سواكن من جدة إلى مكة المكرمة وإلى الطائف. وصرف مبلغ (٥٦٠٠٠٠) قرشًا عثمانيًّا لخط البرق (التلغراف) بين معان ومكة المكرمة.

وتمّ تعمير المنبر في الحرم المكي الشريف بشكل ممتاز، وبأيدي عمّال مَهرة، استُقدموا من استانبول، وصنع عَلَمان مقصَّبان ليعلّقا كلّ جمعة على منبر البيت المعظم، وصنعا أيضًا في استانبول لإهدائهما إلى المكان. (١٣٠١ هـ).

وتمّ- بناءً على إرادة سلطانية- بناء دورتين في مستشفي غرباء المسلمين في مكة المكرمة[١].

---

(١) محمد الأمين المكي، خدمات خلفاء آل عثمان للحرمين الشريفين ص ١١ – ١٣ استانبول ١٣١٨ هـ.

أمّا خدمات السّلطان عبد الحميد- للمدينة المنورة- فقد تمثّل في الآتي:

أمر- السّلطان عبد الحميد- بصرف مبلغ (٧٥٣٨٠) قرشًا عثمانيًّا للأعمدة المرتكزة على قاعدة قبّة قبر الرسول، والجسر الذي بينهما. وأمر بتعمير الأماكن التي تحتاج إلى تعمير في أبنية خدم النبي، وتجديد الرصاص والدّهان والنقش والزخرفة في قبّة الرسول، وداخل الحرم النبوي الشريف. وتقديم القناديل الكليّة للروضة المطهرة، وتجديد دهان وزخرفة قبّة الروضة، وأبواب الحجرة النبوية. وأمر بتصنيع وإرسال قناديل وشمعدانات فضيّة بمبلغ (٣٨٤٠٤) قرشًا عثمانيًّا. وتصنيع وإرسال شعر ومشاعل بمبلغ (٦٣٢٢٥) قرشًا عثمانيًّا خصيصًا للمحالّ العالية في المدينة المنورة. وتجديد تعمير المسجد المعروف باسْم قبة الرؤوس في المدينة المنورة، ومسجد شهداء بدر، وتعمير مسجد المنيف، وأرسلت ستائرُه من استانبول. وتعمير مسجد العشرة المبشرة بالجنّة في المدينة المنورة.

كما أرسلت سجاجيد قيّمة للغاية إلى الحرم النبوي الشريف؛ لفرشها، وهي من إنتاج المصنع السلطاني.

وأرسل السّلطان مجموعة من الكتب الإسلامية إلى المدينة المنورة.

وعمّر المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، وأنشأ مدرسة رشدية وإعدادية ومركز شرطة، وقوس باسم خليفة المسلمين في العنبرية.

***

وصرف مبلغ (٢٦٤٠٢٢) قرشًا عثمانيًّا لأهالي الحرمين الشريفين، إعانة نقدية، و(إكرامية أهالي الحرمين الشريفين) وهي (٢٦٤٠٢٢) قرشًا عثمانيًّا، على العادة السنوية، مع الصرّة السلطانية. وصرف مبلغ (٢٦٤٠٠٠) قرشًا عثمانيًّا للمتضرّرين من القحط عام (١٣٠٧ هـ)، من أهالي الحرمين الشريفين. وصرف مبلغ (١٠٠٠) ليرة عثمانية من جيب السّلطان الخاص لفقراء الحجّاج القادمين من المحيط الهندي. وصرف مبلغ (٢٦٤٠٢٢) قرشًا عثمانيًّا للمرة الثالثة لأهالي الحرمين الشريفين وعُربانهما ممّن أصابهم القحط. وصرف مبلغ (١٥٠٠) ليرة عثمانية «إعانة الحجاز»[١].

***

(١) محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص ٦-١١.

**و- الاهتمامُ بوسائل المواصلات:**

يوصف عهدُ السّلطان عبد الحميد بأنه (عهد الجامعة الإسلامية)، إلّا أن بعض مؤرخي الترك يحلو لهم أنْ يضيفوا إلى هذا بإنه: (عهد إنشاء السكك الحديدية وتشغيلها).

***

لقد كان الوضع المالي في الدولة العثمانية سيئًا؛ لذلك اضطرت الدولة لإحالة مشروعات السكة الحديد إلى الشركات الأجنبية. وإنْ كانت الدولة العثمانية قد نفّذت بعض المشروعات المحلية لإنشاء خطوط سكك حديدية، إلّا أن مدّها وتشغيلها أُحيل على شركات أجنبية. هذا باستثناء خط سكة حديد الحجاز.

كانت سياسة إنشاء السكك الحديدية، ضرورةً من الناحيتين الإستراتيجية والعسكرية والتجارية والزراعية. لذلك كان السّلطان لا يوافق على فكرة إنشاء خطوط سكك حديدية في مناطق الحدود، حتى لا تستغلها دولة أجنبية في حالة نزاع بينها وبين الدولة. وكانت السلطات العسكرية العثمانية توصي بعدم إنشاء خطوط سكة حديد إلّا في الأماكن البعيدة عن السواحل بقدر الإمكان، حتى لا تكون معرّضة لتخريب الأساطيل الأجنبية.

ومن الناحية السياسية، كان السّلطان عبد الحميد يرى أنّ ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن يحيل عليها مسألة إنشاء قطارات السكة الحديد بثقةٍ محدودة، وحذرًا من اتفاق بين إنكلترا وروسيا ضدّ الدولة العثمانية في (المسألة الشرقية)، ولاسيما أن إنكلترا- بعد احتلال مصر- قد اقتربت من شبه الجزيرة العربية، والخطر الروسي قد اقترب من الأناضول، فقد وجد السّلطان عبد الحميد أنه- لدرء هذه الكارثة الوشيكة الحدوث- يجب أنْ يوافق على خط السكة الحديد الذي يمرّ بالأناضول ويصل إلى البصرة، ويستفيد الألمان من إقامته، ويقف هذا الخط أيضًا سدًّا ضدّ الخطر الإنكليزي والروسي الوشيك[1].

***

(١) قارال، المرجع السابق ص ٤٦٩.

**خطّ سكة حديد الحجاز:**

وكان أهمّ مشروعات السكك الحديدية لدى السّلطان عبد الحميد، هو خطّ سكة حديد الحجاز. وقد عبّر السّلطان عن هذا المشروع بقوله: (إنّ إنشاء سكة حديد الحجاز هو حُلمي القديم).

بدأ مشروع سكة حديد الحجاز عام ١٩٠١، ليربط الحجاز بالعاصمة استانبول لفائدة الحجاج، ولربط أواصر المسلمين في مختلف البقاع بالخليفة. وأن يكون (١٥٠٠) كيلو مترًا طولًا، ويصل إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨م. ويربط دمشق بالمدينة، وحوران بدرعا، ويترابط بالبحر الأبيض عن طريق حيفا، وقد خدم هذا الفرع الحجيجَ المصري الذي كان يقدم بالسفن من الإسكندرية إلى حيفا، ومنها بالسكة الحديد إلى الحجاز. وقد جمعت التبرّعات لهذا المشروع من الدولة العثمانية، ومن سائر أرجاء العالم الإسلامي. واستحدثت له بعض ضرائب محلية، وطوابع بريد عثمانية، ويستفيد منه الكثير من المهندسين العثمانيّين، والعمّال المهرة، والعمال العاديّين؛ في اكتساب الخبرات[1].

ومن فوائد سكة حديد الحجاز أنّ الدولة العثمانية لم تعد في حاجة إلى قناة السويس، التي تسيطر عليها بريطانيا. كما كان لإنشاء الخطّ نتيجة

(١) حكمت بايور، تاريخ الانقلاب التركي جـ١ ص ١٤٤.

معنوية؛ لأنّ الدولة العثمانية أقامته بنفسها، وبالتالي أصبح دليلًا على: أننا أمّة لديها الاستعداد للتقدم»[1].

***

لم يكنْ مشروع سكة حديد الحجاز، يلقي في بدايته رواجًا. فقد اعترض عليه الصدر الأعظم «سعيد باشا». و«شاعَ على أفواه بعض الخواص والعموم جملة اعتراضات وإيرادات، منها وهو أهمّها «أنّ عرب البادية الحجازية، وبعض سكان مكة المكرمة، والمدينة المنورة، لا يساعدون على إنشائها، بل يعاكسون ولا يسكتون عليه، بل يعارضون، لما سوّل لهم أصحابُ الغايات، ووسوس إليهم ذوو الافتراءات من أن هذه السكة تضرّ بتجاراتهم، وتسيء معيشتهم، لكوْن كسبهم محدودًا بنقل الحجاج والزوار والتجار على دوابهم في تلك الأقطار. ولأنّ هذه السكة تكون سببًا لتعطيل دوابهم في تلك الأقطار، فتنمحق أرباحهم، ويصبحون فقراء مُعدَمين فتسحق أرواحهم»[2].

تصدّي لهذه الأقاويل والإشاعات، علماءُ الدين والمثقفون المسلمون، ووعظوا في فائدة السكة الحديد، وكتبوا فيها الرسائل والكتب، وفندوا

(١) قارال، المرجع السابق ص ٤.

(٢) محمد عارف، السعادة النامية الأبدية في السكه الحجازية الحديدية ص ٢٨٦.

الدّعايات المضادّة، وقالوا: «اعلم أنّ في إنشاء هذه السكة الحديدية، تسهيل اتصال المؤمنين بعضهم ببعض». ومثل هذه السّكة «مثل استحضار السلاح والمدافع والبارود والفشنك والخيل وأمثالها، لا يكون بينها فرق، بل يكون إنشاء السكة الحديدية أحقّ بالتقديم»[1].

وذكر السيد (محمد عرف الدمشقي) إمام الشافعية في الشام فوائد السّكة الحديدية للمسلمين عمومًا، ولأهالي الحرمين خصوصًا، ردًّا على فرية تعطيل أعمال أهل الحجاز، فقال: « الفائدة الأولي: تكثير الحجاج والزوّار والتجار، فإنّ مدّ هذا الخطّ الحديدي من الشام إلى مكة يزيد الحجاج إلى أضعاف مضاعفة، فإذا كان عددُ الحجّاج الآن- في عهده- من نفْس الشام ألفًا مثلًا، يكون بعد وجود هذه السّكة عشرين أو ثلاثين ألفًا بلا شكّ ولا ريب.

**والفائدة الثانية:** «أنه يمكن للدولة العليّة- العثمانية- وقت اللّزوم أن ترسل لتلك الجهات ما تحتاج إليه من الإمدادات والتجهيزات في أيّ وقت شاءت. فيصلُ إليها في أقرب وقت، ويمتنع بسبب ذلك تعدّي العرب المتوحشين، وتحصل تلك الأقطار وأهاليها والحجاج على الأمْن التام».

(١) محمد عارف، المرجع السابق صفحة ٢٠٩ وصفحات ٢٨٧- ٢٩٠ و٢١٦ و٢١٤ و٢١٩١ – ١٩٢ على التوالي.

**والفائدة الثالثة:** .. أراضي الحجاز من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة كلها قابلة لزراعة الحبوب والبقول والبطيخ والقثاء والخيار وما أشبهها، ولغرس الأشجار المختلفة الأثمار، كالعنب والنخيل والرمان والتين والموز والسفرجل والليمون والأترجّ بجميع أنواعه وما أشبهها، وأنه لا يؤخذ لمكة منها إلّا من وادي فاطمة، ووادي الليمون، والباقي يبقى في أرضه لأنه يفسد بطول مدّة النقل، وأمّا التمر وما ماثله ممّا لا يفسد بالنقل فمن الأراضي القريبة منها لا من البعيدة. ومع هذا فإنّ أثمانها لا تفي بمصارفها، ولذا اقتصروا منها على غرس ما يكفيهم، والمياه الموجودة عندهم لا ينتفعون بها الآن حقّ الانتفاع. فإذا مدّ الخطّ الحديدي من أرضهم أو في جوارهم يسهل عليهم النّقل، فلا تفسد المحصولات. وبالضرورة تكون الأجرة أرخص من أجرة النقل على الجمال، فيربحون ويزيدون حينئذ من الزرع والغرس والتجارة، وكذا في جوار المدينة المنورة.

**والفائدة الرابعة:** أنّ بدوَ الحجاز لا صنائع الآن عندهم، بل ولا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويأخذون جميع ملبوساتهم المنسوجة وغيرها من تجّار الركب الشامي حينما يمرّون عليهم.. وكذلك جميع أمتعتهم وأثاث بيوتهم ومفروشاتهم بقيمةِ غبنٍ فاحش، ومن بعض تجار الحرمين مَن لا يراقب الله تعالى في تجارته، فيتجرون في أخسّ

الأشياء وأقربها للبلى، ويبيعونها بقيمة الحسنة القوية.. ويبيع أولئك البدو محصولاتهم بثمنٍ بخس جدًّا، وذلك مثل جلود الغنم والبقر والإبل والصوف وبعض محصولاتهم لا ينتفعون بها أصلًا مثل اللبن والحطب وشعر المعز، فإذا أنشئت هذه السكة في تلك الجهات سهُلَ عندهم تأسيس مكاتب- مدارس- للصنائع والزراعة، ولو مختصّة بما يتعلق بتلك البلاد أولًا ثمّ تعمّم. فإذا تعلّموا وعرفوا كيف يتصرّفون بمحصولاتهم، ويستفيدون منها، ويجدون ما يحتاجون لأنفسهم عندهم، مثل دباغة الجلود وحياكة القطن والصوف والشعر، والنجارة والحدادة، وعمل الجبن والسمن، صاروا مِن أهل الترفه وأولي الثروة. واستغنوا عمّا يجلب لهم من غير البلاد، وشنّ الغارات على بعضهم، ومن يمرّ بأرضهم.

**والفائدة الخامسة:** أنه- بواسطة السكة الحديدية- يسهل التفتيش على المعادن في هذه الصحاري والقفار التي لم تزل إلى الآن غائبة، وكنوزها فيها مخفيّة، فإذا تمّ إنشاء هذه السكة سهل الجولان في تلك الأقطار، وحفر التراب ونبش الرمال وجوب الأحجار، فيظهر ما استكنّ فيها من الفحم والمعادن، وأودع فيها من الأسرار، وبذلك تصبح هذه البلاد في دورٍ ثانٍ من أدوار الازدهار. فتضيء شمسها، وينير بدرها، وتمسي في بحبوحة الغناء والثروة، متمتعةً بالعيشة الراضية والرفاهية الباهية.

**والفائدة السادسة:** تأسيس المدنية والحضارة فيهم، وانتشار العلوم والمعارف بينهم، والأمن على الأنفس والأموال والأولاد.

**والفائدة السابعة:** أنّ الدولية العلية - العثمانية - تستخدم منهم مَن يليق للاستخدام في أمور هذه السكة الحديدية، وتعطيهم أجرة لأنفسهم.

**والفائدة الثامنة:** أنهم يبيعون المارّين عليهم في السكة، مأكولات ومشروبات وغير ذلك، مما لا يباع بغير واسطة السكة الحديدية أصلًا، مثل الخبز واللحم والبيض والماء المعلل المبرد.. وفيها ربح عظيم.

**والفائدة التاسعة:** أنّ المواشي تكثر عندهم بواسطة السكة الحديدية، وذلك كما قرّرنا تزداد الزراعة وتعمّم، فإذا ازدادت الزراعة وجِدَ المرعي والعلف للدواب فتكثر وتنمو. وأهل الحرمين في احتياج شديد لزيادة المواشي، ولاسيما الغنم والبقر؛ لأجْل اللبن والسمن واللحم و.. هذه الفوائد عدا فائدة إيجار البدو وجمالهم من مكة إلى عرفات...».

وردًا على الاعتراض القائل: بأنّ سكة حديد الحجاز ستكون سببًا لتعطيل دوابّ عرب البادية الحجازية، وبعض سكان مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ يقول الشيخ محمد عارف الدمشقي:

«إنّ الجمال التي يؤجرها بدو الحجاز من ينبع إلى المدينة المنورة للزوار والتجار والحجاج، يزيد عددُها بعد مدّ السكة على ينبع إلى جدة، إمّا أن

يخرجوا إلى ينبع فيستأجرون مع القوافل إلى المدينة، ومنها مع الركوب التي تخرج من مكة للمدينة، أو مع الركب الشامي، ومنها إلى ينبع توًّا إلى جدة، ومنها إلى مكة، ثمّ مع القوافل التي تخرج من مكة للمدينة، أو مع الركب الشامي، ومنها إلى ينبع إلى بلادهم وهؤلاء الزوار إنما يزورون مرة واحدة قبل الحج أو بعده حسبما يتيسر لهم، ولا يزورون مرتين للمشقة، وخوف الطريق، بالركوب مع القوافل، أمّا بعد وجود السكة الحديدية، فحيث تحصل الراحة، وأمن الطريق؛ فيأتون كلهم إلى ينبع، ومنها للمدينة، فيركبون السكة منها إلى مكة، ويرجعون عليها للمدينة، ومنها إلى ينبع وإلى بلادهم، فيربح بدو الحجاز أصحاب القوافل من ينبع إلى المدينة ضعفي ما كانوا يربحون أولًا إذا لم نلتفت للزيادة المحققة بواسطة راحة السكة، وأمن الطريق بوجودها هذا من ينبع».

***

يستفيد من سكة حديد الحجاز- مشروع السّلطان عبد الحميد الرئيسي- بدو الشام أيضًا. ويبين إمام الشافعية في دمشق أنَّ إنشاء هذه السكة إنما هو أيضًا من قبيل إعداد القوة المأمور بها المسلمون. وأن في إنشائها إعمارًا للحرمين الشريفين. وأنّ إنشاء هذه السكة، إنفاقٌ في سبيل الله. وفيها أيضًا إعانة للمؤمنين على أداء فريضة الحج، والعمرة، وزيارة الرسول صلّى الله عليه وسلم، والتجارة والصناعة والزراعة،

وتمدين المتوحشين وإغناء الفقراء، وإشباع الجياع، وثروة البلاد، وتسهيل اتصال المؤمنين بعضهم ببعض.

ويدرج الشيخ (محمد عارف) الدمشقي بابًا (في وجوب طاعة الأمير على كل مؤمن بالإعانة على إنشاء هذه السكة وحرمة مخالفته والتخلف عنه)، شعرًا:

طاعة السّلطان حق واجب جاءنا القرآن فيها والحديث

***

بدأ العمل في مشروع خط سكة حديد الحجاز عام ١٩٠١. وكان السّلطان قد عيّن (عزت باشا) رئيسًا للجنة المشروع. وقد وجّه هذا نداءً للعالم الإسلامي للتبرع لتغطية نفقات المشروع، وقد افتتح السّلطان عبد الحميد قائمة التبرعات بمبلغ «خمسين ألف ذهبٍ عثمانيّ من جيبه الخاص»، وتقرر دفع (مائة ألف) ذهب عثماني من صندوق المنافع، وطُبعت أوارق بمليون، و»أسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال»[1].

***

(١) محمد عارف، المرجع السابق صفحة ٢٠٩ وصفحات ٢٨٧- ٢٩٠ و٢١٦ و٢١٤ و١٩١- ١٩٢ على التوالي.

وتبرّع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسن باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروع (عزت باشا).

وتبارى موظفو الدولة العموميون، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر، في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة للدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصحافة المصرية في حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة «اللواء» المصرية تبرعات للمشروع بلغت- حتى عام ١٩٠٤- ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها (مصطفى كامل باشا)، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢,٠٠٠) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام ١٩٠١م.

***

ونفّذ المشروع، فوصل إلى المدينة المنورة في سبتمبر ١٩٠٨م آخر مراحله. وعن استمرار الخط إلى مكة المكرمة وجدَ المشروع معارضة من الشريف حسين خوفًا على سلطته ومكانته.

وصاحبُ فكرة المشروع هو عزت باشا العابد- الذي أصبح فيما بعد رئيس لجنة المشروع- وإن كان محمد كرد علي يذكر أنّ التفكير في

إنشاء هذا الخطّ بدأ عام ١٨٨٠م عندما قدّم وزير الأشغال العثماني إلى الحكومة فكرة هذا المشروع الذي حال دون تنفيذه وقتها صعوبات مالية[١].

وأسهم في هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري)، وشكلت لجان تبرع للمشروع في كلٍّ من القاهرة والإسكندرية، وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثرَ مسلمي العالم حماسًا وعاطفة وتبرعًا للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر آباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع، كما تبرع شاه إيران بمبلغ (٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيّين الأجانب في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلّا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأنّ الأجانب لم يشتركوا إطلاقًا في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر- على بعد ٧٦٠ كيلو مترًا جنوب دمشق- وحتى نهاية المشروع- ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيّين مصريّين.

وبلغ عددُ العمّال غير المهرة عام ١٩٠٧: (٧٥٠٠) عاملًا.

(١) محمد كرد علي في خطط الشام جـ ٥ ص ١٨٨ عن الشوابكة ١٨٦- ١٩٩.

وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانية. وتمّ إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقلّ مما لو تعمله الشركات الأجنبية في أراضي الدولة العثمانية.

***

ويبدو أن الحكومة العثمانية استجابت لدعوة «المنار»، في ٢٣/ ١١/ ١٩٠٨، حينما قالت: «إنه ممّا لا ريب فيه أن السكة الحجازية إذا أمكن إيصالها إلى القطر اليماني لكانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب والمسلمين عامة.. لا سيما بعد أن صار البحر الأحمر مزدحمًا بعدة دول أجنبية، وكان من قبل بحيرة عثمانية». ذلك لأن بين الوثائق العثمانية، وثائق فيها تخطيط ودراسة لمدّ خطّ سكة حديد الحجاز إلى اليمن(١).

**سكة حديد بغداد:**

كان المقصود بهذا الخط الربط بين استانبول والبصرة. وأعطى السّلطان عبد الحميد امتياز إنشاء خطّ قونية- البصرة الحديدي إلى الدكتور (سيمينز) رئيس مجلس إدارة شركة خطوط سكة حديد

(١) المصدر السابق.

الأناضول عام (١٨٩٩م). وتحقق هذا الامتياز عام ١٩٠٢م، حيث بدأ العمل. وتم افتتاح القطاع الخاص الموصّل من قونية إلى أركلي في عام ١٩٠٤م. أما الجزء الخاص الواصل من أركلي إلى بلغورلي فتمّ إكماله في الفترة الأخيرة من حكم السّلطان عبد الحميد. ولم يكمل المشروع[1].

***

**ز ـ سياسةُ التودّد والاستمالة:**

أخذ السّلطان عبد الحميد -في الناحيتين المعنوية والدعائية- بسياسة التودّد إلى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط الشعبية في مختلف البقاع. فمن ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتّب رواتب لأعضائه. وكان حسن النية مع مرشديهم. وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية.

ومن ناحية أخرى، يتودّد إلى الشخصيات البارزة التي تؤيد أفكاره، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر، ويصبر على أخطاء البارزين- إذا كانوا يحسنون النية معه، ما داموا يؤازرونه في فكرة الجامعة الإسلامية- مثل (نامق كمال).

(١) قارال ص ٤٦٧.

ومن سياسة الاستمالة هذه، إنشاء مدرسة العشائر العربية في استانبول، وهؤلاء الطلاب كانوا يختارون بالقرعة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يختار بعض طلبتها من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد فأخذت أيضًا من أبناء الأكراد والألبان.

ولما وجد السّلطان عبد الحميد أنّ بريطانيا تتّصل بشيوخ القبائل العربية لتحريضها ضدّه- كما جاء ذلك في مذكرة الكولونيل (هربرت تشارم سايد) التي أثبتت اتصال بريطانيا (بشريف مكة) و(بالشيخ حميد الدين) وشيخ عسير وبعض شيوخ القبائل- وتحرضهم بواسطة جواسيسها المنتشرين بكثرة في البلاد العربية، بالخروج على طاعة السّلطان عبد الحميد، والانفصال عن الدولة العثمانية. لم يكتف السّلطان بالسؤال المباشر عن هؤلاء، كما سأل شريف مكة عن سرّ اتصاله بالإنكليز عن طريق قناصلهم، ولم يكتفِ بتحذيره من عاقبة عمله؛ وإنما أرسل خطابات الودّ إلى رؤساء القبائل والأمراء في جزيرة العرب وغيرها، ومعها الرسل لاستمالة هؤلاء، وأرسل إليهم الرتب والنياشين(١).

---

(١) الغامدي ص ٨٢- ٨٣.

لكن السّلطان عبد الحميد، لم يتوانَ أيضًا عن «حجز» الذين يشكّ في ولائهم له وللخلافة في استانبول تحت مسمّيات المناصب والمرتبات، حتى يأمن انقلابهم ضده، كما فعل مع شريف مكة عندما عيّنه عضوًا في مجلس شورى الدولة في استانبول، ليمنعه من العودة إلى مكة. وقد عبّر السّلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا. قال السّلطان عبد الحميد: «إن الشريف حسين لا يحبّنا. إنه الآن هادئ وساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غدًا»[(١)].

***

لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلى ما بعد خلع الاتحاديّين للسّلطان عبد الحميد.

فلمّا حكم الاتحاديون، أعادوا الشريف حسين إلى مكة، ومن هناك قام بثورته، وحدث الانفصال بين العثمانيّين وبين العرب.

***

(١) جلال الدين باشا، عكس الوسام، استانبول ١٩٧٠ ص ٨.